

صور الواقع و رؤى العالمية في مونولوج فاطمة

الأستاذة : بلحولة سهيلة

أستاذة بجامعة عبد الحميد بن باديس مستغانم

— قسم الفنون — .

إن العمل المسرحي هو التعبير عن رؤية المبدع للعالم ، عن طريق الإحساس به وتحديد قضاياها من زاوية شمولية العلاقات الإنسانية ، وعلاقة الإنسان بالكون ، وهي رؤية بالرغم من أنها تخص فردا معينا إلا أنها نابعة عن المجموعة و تحددها جزئيتين هما :

— إعادة تنظيم العلاقات الإنسانية .

— المحافظة على البنية الاجتماعية القائمة.

لأن الكاتب يحاول أن يقدم صورة للواقع كما نعيشه من منطلق فهمه لإشكالية العلاقات الاجتماعية التي تحتويها الكتابة المسرحية "فالعملية الإبداعية في النص الدرامي لا يمكن أن تقدم دون استيعاب كامل و دقيق لإشكالية تلك العلاقات القائمة"(1).فهو يستخرج مادته من الواقع العام للمجتمع الذي يعيش فيه ، يحدد مشكلاته لكي تكون له القدرة على الإحساس بالحياة الاجتماعية في مستوياتها المتعددة ، و إدراك قضاياها من خلال رؤية تنشأ فردية ، و لكنها لا يمكن أن تحقق ذاتها إلا إذا خرجت من حدود الفرد إلى المجتمع ، و من الواقع الخاص إلى الواقع العام و تحولت المشكلة في نفس الكاتب رمزا لمشكلة في ضمير الإنسانية .

فالمسرح وجد ليكون قادرا على التقاط عيوب الواقع القائم وإعادة عرضها حاملة أبعادا إنسانية تحول الكتابة لتصبح وسيلة حضارية هدفها تنظيم الفائض من الانفعالات الفكرية عن طريق تصويرها في حالة من الصراع الإنساني الفاعل مع تحديد الزمان والمكان .

"الواقع المادي في تفاعل مستمر مع الأفكار والتغيرات التي تحدث صراع في المجتمع نتيجة التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية كلها تؤثر في الوضع الإنساني ، ومن ثم في شكل الدراما

ومضمونها ، وهذا يعني أن المسرح انعكاس للواقع الاجتماعي "(2).

هذه المقولة تدفعنا إلى الإشارة أن الكتابة المسرحية تعبير عن مجموع حالات لدى الكاتب المسرحي إزاء إشكالية الواقع و ترجمة موقفه الأخلاقي منها ، لأنه يعيد عرض مقتطفات من الحياة بجانب من الترتيب وتحديد رؤيته "و لا يكفي بنقل بضعة من الحياة الإنسانية فوق خشبة المسرح نقلا حرفيا"(3).

فالسلك الإنساني ضرورة فنية و قاعدة أساسية تخلق في ظلها الكتابة المسرحية ، و هذه الفكرة تؤكد لنا أن "الكاتب المسرحي حينما يصور لنا كائنا إنسانيا كاملا فهو لا يعيد تصويره فقط، وإنما يعيد تصوير المجتمع الذي ينتمي إليه ، و هذا المجتمع ليس إلا ذرة من

الكون ومن ثمة فالمسرح الذي خلق لنا هذا الإنسان يعكس لنا الكون كله "(4). وهذا ما حدث في مونولوج "فاطمة" باعتبار أن المونولوج إحدى وسائل التعبير عن رؤية المسرحي للعالم ، "فهو يمدنا بما هو غير مألوف أحيانا للأشياء العادية و يفتح لنا الطريق نحو فهم معانيها

و إدراك حقيقتها المادية "(5).

و المونولوج بوصفه جهدا فرديا يجمع الكثير من الانفعالات في حالة واحدة تبرز طاقات الكاتب الزائدة في صورة تفرض قيمتها من منطلق طاقات كل فرد يريد التعبير عن نفسه ، عن ذاته شعورا وحرارة و الهدف الوحيد هو إعطاء الغير صورة أو فكرة عن واقع ما .

فقد صور لنا محمد بن قطاف من خلال فاطمة بطلة المونولوج وقائع حياتية جسدت تناقضا أساسيا يكمن بين الواقع الإنساني القائم كما نحياه ، و الواقع الإنساني المطلوب تشكيله في المستقبل ، وهذه فرضية سنسعى إلى إثباتها و التحقق من صحتها في مونولوج "فاطمة" .

وذلك من خلال التساؤل التالي :

• إلى أي مدى نجح محمد بن قطاف في تصوير التناقض بين الواقع الحياتي القائم .

وبين الواقع المحتمل ، و هل تمكنت "فاطمة" من بسط كل هذه الجوانب للوصول إلى تلك القمة التي تسمى العالمية ؟ .

نجد احمـد بن قطاف قد اتجه على لسان فاطمة إلى تصوير أبعاد ذلك التناقض من خلال طرق ثلاثة:

(1) _تصوير الواقع والأوضاع القائمة وكشف سلبياتها وتأكيد استحالة التعايش معها:

يحدد الكاتب لهذا الواقع سمات أساسية ويظهر ذلك حين تشير فاطمة إلى سلبيات الواقع ، وتنطق قائلة :

"... ما هيش السومة اللي تخرج مني آه ... ما هيش ... وماهيش ...الظلم هو اللي يخرج مني الآه...الإهانة و الإحتقار هما اللي يخرجو مني الآه تصغير بن آدم خلقه ربي هو اللي يخرج مني الآه ، الجهل اللي يطمع في الناس هو اللي يخرج مني الآه "(6).

(2) وصف الواقع الممكن قيامه و الذي تتحقق داخله العلاقات الإنسانية التي يمكن المحافظة عليها :

تصور لنا فاطمة و تصف الواقع الأصلي حيث القوة تأخذ مكان الضعف ، و العدالة تأخذ مكان الظلم...

. "فاطمة : على هذا اللي ما نقدرش نتنفس غير فوق السطح ... كأنه ثقل الدنيا و ما حامله من كذب و نفاق تردمو في بير ...فوق السطح نحس روعي نجمة...فوق السطح

نحس روعي عديت وراء الشمس ...من صغري نحب السطح ...يمكن على خاطر حتى شيء ما يحجب علي السماء "(7).

حقق محمد بن قطاف على لسان فاطمة تلك الجزئية التي تؤكد أن المونولوج لا يهتم بنقل الحقيقة كما هي ، وإنما علينا إعادة بناء الواقع كي نكتشف من خلاله وجهة نظر الكاتب .

(3) المزاوجة بين الواقع القائم و الواقع الممكن قيامه لإبراز التناقض الكامن بين الواقعيين ،

و محاولة استبدال الواقع الممكن بالواقع القائم :

يجمع هذا الجانب بين تصوير فاطمة للواقع القائم ووصف الواقع الممكن وقوعه وذلك عن طريق المزج بينهما للحصول على تركيبة من ماضي وحاضر ومستقبل المجتمع الذي تؤكد فاطمة أنه حلم ، حلم كل فرد جزائري .

هكذا تتجمع أمامنا عناصر الصورة التي رسمها محمد بن قطاف في مونولوج "فاطمة" لتثير معالم رؤيته للعالم و للواقع القائم ، و كأنما في لحظات كثيرة يرفضه و يريد إزاحته

وإقامة واقع آخر قد يكون محتملا أو ممكنا لكنه يبقى في الأخير أنقى من الواقع القائم .

لهذا يمكننا توضيح تلك العلاقة ما بين واقع الكاتب وما يفرضه واقع الحياة من خلال الإشارة إلى أن "العمل المسرحي له واقعه الذي لا يمكن أن يتفق فيه مع واقع الحياة أو مع أي واقع آخر ، وكما أن الحياة لا يمكن أن تخضع إلا لواقعها ، و بالتالي لا يمكن أن نفهمها إلا

من خلال هذا الواقع ، كذلك العمل المسرحي لا يمكن أن يخضع إلا لواقعه ولا يمكننا أن ندركه إلا من خلال هذا الواقع " (8) .

ففكرة مونولوج "فاطمة" نابعة من صميم الحياة التي نعيشها ، ومن هنا كانت أصالة التزامها و شموليتها الفكرية و قيمتها الإنسانية وبعدها العالمي ، فقد احتفظ كاتبها بالعناصر الجوهرية للحقيقة الحياتية ، لذلك اكتسبت قيمة اجتماعية استوحت مضمونها الفكري من خلال تفاعلها الحي مع واقع المجتمع الجزائري وقراءتها لمجموع المآسي و الآلام ، الأفراح و الآمال و هدفها كان تغيير أسس الحياة ومبادئها المشوهة من منطلق طرح أهم قضايا العصر في جوانبه النفسية المتعددة واتجاهاته الإنسانية العامة ، صورة العصر بآلامه ومآسيه ، شروره وأطماعه التي تهدد الإنسانية كلها وتحذرنا مما سيلحق بها .

فكان بذلك مونولوج "فاطمة" جسرا متحركا يحمل واقعين متصارعين ، ينفرد كل واحد منهما بأسلوبه الخاص في طرح الأحداث ومعالجتها للوصول في الأخير إلى محاولة تغيير الأوضاع القائمة واقتحام الأوضاع الممكن قيامها.

كان جهد محمد بن قطاف منصبا في البحث عن الأسباب التي جعلت المجتمع الجزائري يتعايش مع واقعه على هذا النحو دون محاولة تغيير ما هو قائم لتكون جمالية مونولوج "فاطمة" و ما تحمله هذه الجمالية من دلالات و مواقف تركز على التصور المادي للواقع ، و تبحث عن كرامة الإنسان و حريته و استقلاله ، لتكون ممارسة الكتابة

إذن عن وعي نابع من واقع قائم يتطلب أو يفرض واقعا مغايرا يمكن قيامه و يركز من جهة أخرى أيضا على المسرحية باعتبارها عمل فني آخر يجب أن يكون كلا متناغما بالرغم من تباين أجزائها ، لذلك كان محمد بن قطاف همه الوحيد في الكتابة ليس مراعاة الوحدات الثلاث ، وإنما كان يركز دائما على أهم وحدة وهي الوحدة الفنية التي تعتمد على دقة الإحساس والقدرة على التمييز بين ما هو متصل بصميم الموضوع وما ليس كذلك .

وإذا ما حاولنا الكشف عن مضمون المسرحية وأهدافها الإنسانية سنجد أن أحداثها تحاكي واقعا بكل أوضاعه الاجتماعية ، السياسية ،الاقتصادية، وترسم واقع فاطمة عاملة التنظيف ، وواقع كل فرد جزائري يعاني في مجتمع كثرت آلامه و آماله .

كشف لنا المونولوج عن مواقف إنسانية بطريقة فنية أبرزت الشر ووضحت طبيعته العامة

وحددت زوايا جديدة وعلاقات أضفت خصوصية ، هذه الخصوصية التي أكدها باتريس بافيس حينما قال : "خصوصية النص الدرامي تكمن في عدم خصوصيته ، التي تطرح إشكالية أخرى في طريقة تحليل النص الذي أريد له أن يكون عالميا "(9).

لأنه في الحقيقة علاقة المسرح بواقع الفرد في المجتمع لا يمكنها أن تفرض علينا تلك النتيجة التي تقول أن المسرح الجزائري لا يمكن أن يتطور ما دام المجتمع الجزائري يعاني من مجموع وضعيات اجتماعية ،

سياسية ، ثقافية ، اقتصادية سلبية قائمة ، تجعلنا ننتظر حتى يبلغ مجتمعنا درجة عالية من التطور قبل أن يتمكن مسرحنا من بلوغ درجة متقدمة من العالمية ، و نقول أيضا أن مسرحنا سيرتقي إلى مستويات عالية بمجرد أن يتقدم المجتمع الجزائري ، فهذه الفكرة تضيق فسحة المسرح و لا تخدم تقدمه لأن المسرح تعبير عن واقع الحياة بآلامه و آماله ، بأحزانه و أفراحه و هذا ما حدث بالنسبة لفاطمة التي عبرت عن مآسي الواقع .

فالكتابة المسرحية تستند للواقع القائم فتقتبس منه الكثير من الأحداث ليتم تجسيدها في نصوص مختلفة تهدف إلى تسليط الضوء على الواقع سواء من حيث الاستقرار أو من حيث المعاناة التي يطرحها الكاتب على طاولة النقاش و التحليل من أجل الحصول على من يشاركه الفكرة و يحاول تفعيل الإمكانيات التي تساهم في إيجاد الحل للتخلص من هذه الظروف الصعبة التي يمر بها المجتمع .

"فالمسرح عمل إنساني يخدم الجميع ويتحدث عن مشاعر الإنسان بشمولية ، ولندرك جيدا أنه خلاف حاد وتضاد قاس في الصراع الاجتماعي حتى و هو يمتعنا و يضحكنا و يخاطب مشاعرنا الإنسانية ، بل إنه لن يستطيع المشاركة في المعارك الاجتماعية إلا إذا أمتعنا و أضحكنا و خاطب مشاعرنا الإنسانية"(10).

لأن ارتباطه بواقع الحياة لابد أن ينتهي بمجرد أن تتم عملية الخلق الفني ...فميلاد العمل المسرحي معناه أنه قد خرج من محيط

الحياة إلى محيط الفن ، فقد استكمل المقومات التي تضمن له الحياة ،
الحياة كعمل فني له خصائصه الدرامية و مميزاته الإنسانية .

و هذا ما أبدعه محمد بن قطاف في مونولوج "فاطمة" ، الذي
صور لنا حياة إنسانة تعمل في التنظيف و عانت و ما زالت تعاني
الكثير من أجل راحة الآخرين ، فكانت تجربتها إبداعا دراميا أضفى
الكثير من المميزات الإنسانية .

"ليس معنى العالمية أن ينفصل العمل الأدبي عن خصائص بيئته،
ويسمو فوق مشاكلها،

ويخلق بعيدا عن آفاقها بل من أولى أسباب تفوق العمل الأدبي وعالميته
أن يكون ابن بيئته ، وأن يصورها بعمق وصدق فني خالص " (11).

وما يعطي لهذه المقولة دفعا هو تحليل باتريس بافيس للعمل
المسرحي الذي يراود له أن يكون عالميا و إشارته لما قاله ميشال فينارفار
: " لا يمكننا فهم النص المكتوب دون تخيل وضعية قائمة، تطرح شروط
إيديولوجية تخص الزمن الذي كتب فيه النص " (12).

فالعالمية إذن تختص بالعمل الذي يجتاز الحدود بين الدول،
ويترجم إلى كثير من لغات العالم ، و يحقق انتشارا واسعا ، بفضل ما
يملكه من خصائص فنية ، تتمثل في تصويره بيئته ، وتعبيره عن قضايا
تهم الإنسان، أو كما عرفها د.محمد غنيمي هلال :

" عالمية الأدب يراود بها هنا خروج الأدب من نطاق اللغة التي
كتب بها إلى أدب لغة أو آداب لغات أخرى ، إما للإفادة منها وورود

مناها لها، وإما لإمدادها بما به تعنى وتكمل في نواحيها الفنية وموضوعاتها "(13).

وهذا التعريف يقودنا إلى مفهوم آخر مأخوذ من الغرب الذي يرى أن كل ما ينتشر في اللغات الأوروبية أدبا عالميا ولا يعترف بحضور الآداب الأخرى غير الغربية إلا إذا أعطاها هو صفة العالمية لكونه ترجمها إلى تلك اللغات الغربية. كما حدث في مونولوج "فاطمة" التي ترجمت إلى عدة لغات أجنبية الإيطالية و اللغة الإسبانية و اللغة الفرنسية

وشاهدها المتلقي الأجنبي عروضاً في البلدان السابقة الذكر .

لذلك استخدم مفهوم العالمية للدلالة على :

- عدد من المبدعين الذين استطاعوا أن يتجاوزوا حدود مجتمعاتهم لملامسة مجتمعات أخرى .

- عدد من الأفكار أو التيارات التي تشكل عنصراً مشتركاً بين الأعمال الإبداعية في العالم .

- أو مواجهة ما يسمى بالأعمال الفنية المحلية بحيث يتعامل معها على أنها في مرتبة أدنى من الأعمال الفنية العالمية .

لكن في حقيقة الأمر تبقى العالمية كما أسس لها محمد غنيمي هلال في قوله: " عالمية الأدب هي خروج الآداب من حدودها القومية طلبا لكل ما هو جديد مفيد تكمّله و تتغذى به واستجابة لضرورة التعاون الفكري " (14).

وما يترتب عن هذا القول هو ما يخدمنا في مونولوج "فاطمة"، لأن د. محمد غنيمي هلال يواصل تعريفه : "عالمية الأدب تجعلنا ننظر إلى أدبنا القومي نظرة أعمق ، إذ نعهده بين الآداب العالمية المختلفة الأخرى ، يغني بصلاته بها ، و ينتهج المفيد من مناهجها، فالآثار الأدبية العالمية تؤلف وحدة يقاس الإنتاج الأدبي الحديث بنسبته إليها ، ودبنا الحديث لبنة في ذلك البناء الشامخ " (15).

ومعنى هذا الكلام أن مونولوج "فاطمة" كان له هذه الفرصة ، بحيث خرج من لغته الأصلية إلى مجموع لغات أجنبية أخرى ، و من خلال الترجمة اطلعت الشعوب إلى المضمون الإنساني الذي صورته المونولوج وجسدته فاطمة و هي الإنسانية التي تقف على رأس الطبقة الفقيرة في المجتمع الجزائري ، تعاني في صمت دون أن يسمعها الآخرون ، وفي هذا الصمت تبرز إنسانية فاطمة .

الهوامش :

(1): فؤاد علي الصالحي - دراسات في المسرح - - دار الكندي للنشر و التوزيع - الأردن
- ط1 - 1999 . ص 21.

(2):صلاح فضل - مناهج النقد المعاصر - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة- 1996- ص43.

(3):ابراهيم حمادة- هوامش في الدراما و النقد- الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1988- ص125..

(4):لايوس إجري - فن كتابة المسرحية - - تر: دريني خشبة - دار سعاد الصباح - القاهرة - ط1- 1993 - ص 461.

(5): أسامة فرحات - المونولوج بين الدراما و الشعر -الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - د.ت - ص 163.

(6): احمد بن قطاف - مونولوج "فاطمة"- نص مسرحي مخطوط - المسرح الوطني الجزائري - ص21.

(7) : م. ن - ص 35.

(8): د. رشاد رشدي - فن كتابة المسرحية - - الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة - 1995- ص220.

(9) : patrice pavis, l'analyse des spectacles, édition nathan université, paris, p191

(10): فرحان بلبل - مسرحنا العربي واقعه و آفاقه - دار حوران للطباعة و النشر - ط1- سوريا - 2007- ص95.

(11): أ. د صابر عبد الدايم يونس - ظاهرة التلاقي بين الأدب العربي و الآداب الأخرى (جذورها و عواملها... و ثمارها الحضارية و اللغوية) - بحث مقدم إلى مؤتمر اللغة العربية (الواقع و مشروع الأمة الحضاري) - المجلس العالمي للغة العربية - لبنان - 2008- ص1.
عن محرك البحث : [www. google. fr](http://www.google.fr)

(12) : patrice pavis , ibid , p191

(13): د. محمد غيمي هلال - دراسات في الأدب المقارن - نهضة مصر للطباعة و النشر و التوزيع - القاهرة - د. ت - ص27.

(14): م.ن - ص27.

(15): م.ن - ص28 .